السّر في شريعة العشاق وأهل الغرام
من خلال طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي
د. عبد العزيز شويط جامعة جيجل

الملخص: على الدوام كانت جدلية (الكشف والتخفي) هي الحيز الذي يدور في فلكه العشق والمحبة، وهو ما يعبر عنه بجدلية أخرى هي (السرية والافتضاح) ، جوانبها، شواهدا، حالاتها، أسبابها، ونتائجها. هذا ما نحاول أن نتلمسه في أثر تراثي في غاية الأهمية السوسولوجية والأدبية والفلسفية والبيكولوجية وحتى الفنية الجمالية، إنه كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي، هذا الأثر آثرنا أن نستخرج منه معاني السرية في العلاقة بين المحبين كما نطق بها النثر (السرد) وكما غنى بها الشعر.

الكلمات المفتاحية: السر/ العشق/ الكشف/ السرد/ الشعر/ ابن حزم

Abstract

The dialectic of revelation and discretion, also known as the dilaectic of intimacy and disclosure, was the ambit around which love has always revolved, with its aspects, examples, cases, causes and consequences. Such an issue wil be traced in this study through Ibn Hazm's 'tawqu al-hamama fi al-ulfa wa al-ullaf' a book of quite sociological, psychological, literary, philosophical, psycological, and even aesthetic, importance. The study has tried to unveil the senses of intimacy between lovers as revealed by narration (prose) and lyrically portrayed by poetry.

Keywords:

intimacy - love – revelation- narration – poetry – Ibn Hazm

مقدمة

إن معاناة العشاق - حين نستقرأ سير عشقهم - نجدها صادرة عن عدّالهم الذين هم أعداؤهم بالطبيعة، وهذه المعاناة أقوى في أحيان كثيرة من معاناتهم ومقاساتهم ممن يحبون. وإن إطلالة عابرة من باحث على موضوع العاذل في شعر الغزل العربي ليحقق ظفرا كبيرا حين يجد تواجد هذا العنصر تواجدا دائما. ولعل وجود العاذل هو الداعي

الأساسي لتحري العشاق السرية والكتمان في خوض علاقة المحبة، يضاف إلى ذلك بعض العادات التي عرفت بها قبائل بوادي العرب، مما سنشير إليه في حينه، وهو امتناع العرب عن تزويج بناتهم لمن تغزل بهن، أو لمن شاع عنه حبهن. وليس غريبا على ابن حزم أن يعي موضوعا كموضوع العاذل في العلاقة الغرامية العربية وحتى الإنسانية، كما ليس غريبا عليه أن يعي أهمية العادات والتقاليد العربية في التأثير على العلاقات الغرامية وعلى رأسها جميعا سلطة العائلة وتسلط الآباء وحكمهم القاسي بحكم العادات والأعراف و تسلطهم على رقاب الأبناء والبنات. فمن أجل ذلك تحدث ابن حزم في كتابه عن السرية وأفرد لها بابا وشدد عليها مرة أخرى من خلال تأكيده على أهمية الإشارة بالعين توخيا للحدز والستر، ونبه على أهمية الكتاب بين المتحابين وأكثر منه أكد مرة أخرى على قيمة الرسول الأمين، كما شنع بباب آخر في إذاعة السر على من يفضحون الأسرار أسرار أحبتهم. وكلها أبواب تخدم موضوع السرية وحفظ الأسرار في العلاقة الغرامية عند العرب وعند ابن حزم. كما تحدث في مواطن عديدة من الكتاب على العاذل كسبب من أسباب توخي الحدز والاستعانة بالسرية قصد إنجاح العلاقة بين المتحابين. سواء أكان العاذل عاشقا موازيا طامعا، أم كان حاسدا مفرقا، أم كان أبا أو وليا متسلطا.

لم يكن موضوع السر في علاقة المحبة مقتصرًا على العلاقة الغرامية بين البشر كما يشهد عليها الشعر العربي، وتشهد عليها كذلك قصص الحب وطرائفهم ونواديرهم، وإنما العجب في سير عشاق الذات الإلهية من المتصوفة سير العشاق العذريين العرب، بل ووجدنا من الدارسين من يجعل عشق العذريين تصوفا مادام مرتبطا بالأرواح ومبتعدا عن الأجساد والشهوات، وقد نبه إلى ذلك الغزالي رحمة الله عليه في الإحياء حين جعل من بيتين للمجنون، مجنون بني عامر قيس بن الملوح في الغزل تصوفا وهما قوله:

أمرٌ على الديار ديار ليلى ... أقبَلُ ذا الجدارَ و دَا الجدارَا

و ما حُبِّ الديارِ شَغَفَنَ قلبي... و لَكِن حُبُّ من سَكَنَ الديارَا

وإن كنا سنشير إشارة عابرة إلى موضوع السر في محبة الذات العلية عند المتصوفة وعلى رأسهم رابعة العدوية وسلطان العاشقين ابن الفارض وغيرهما لأننا سنترك الموضوع لما نظن بأن يشغل عليه باحثون كرام في التصوف ونتجه إلى موضوعنا وهو السر في

مدونة ابن حزم في المحبة وهي "طوق الحمامة في الألفة والألاف" المشهور بـ "طوق الحمامة" اختصاراً.

إن العصر الذي عاش فيه ابن حزم الأندلسي هو عصر نهاية الدولة الأموية في الأندلس وبالضبط في ظل تسلط المنصور بن أبي عامر على الدولة في قرطبة، مما يحيلنا إلى تمسك ذي بال بالعادات العربية إن ليس من طريق السياسة بعد زوال الخلافة فعن طريق السلطة الدينية التي يمثلها ابن حزم كرجل فقه وعن طريق السلطة السياسية المحافظة التي يمثلها منصبه كوزير في عهد عبد الرحمن بن هشام، وليس أحفظ للعادات وتمكينها لها من مسؤول سواء أكان أباً أم كان وزيراً، ولو بشكل ظاهري في أروقة الحكم والإدارة ومجالسه وعلى مسمع ومرأى من العامة وأرباب الدولة ما دام يبغي الاستمرار في منصبه.

الدلالة اللغوية والاصطلاحية للسر (توزع النزوع بين المحبة وتصوف المحبة)

لأمر ما، خادم لنا في هذا الموضوع بالضرورة، نتجه معاجم الألفاظ وحتى المعاني، بما في ذلك الموسوعات العلمية والمعرفية إلى تغليب مفهوم السر في المحبة والمودة على باقي المدلولات الأخرى المتوقعة الكتمان والسرية- وإذا كان السر هو السر لا يفرق بينهما (كلفظتين معجميتين) غير التاء المتوسطة في السر وغيابها في السر ليكون الثنائي أكثر توكيدا على الكتمان من الثلاثي - فإن معنى المحبة يلاحق مفهوم السر ومدلوله حتى في محبة الذات العلية تبارك وتعالى عند المتصوفة وهم أكثر الناس إقبالا على السر؛ والسر أكثر ما يصدر عنهم كما أسلفنا.

وإن كنا سنخالف القاعدة فنبدأ بالحديث ونرجع رويدا رويدا إلى القديم نبين أنه قد ورد في المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة وكان خلاصة لمعاجم الألفاظ والمعاني السابقة في تاريخ المعجمية العربية: ((أسره كتمه. و- إليه حديثاً: أوصله، وأعلمه. وفي التنزيل العزيز: وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً))⁽¹⁾ وكان صاحب المعجم لم يجد غير هذه الآية الدالة على السر وهي في العلاقة الزوجية وما يكتنفها من محبة ومودة، مما يدل دلالة واضحة أن تراكمات الحديث المعجمي عن

¹ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، إخراج أحمد حسن الزيات وآخرين، د ط، القاهرة مصر، دار الدعوة، د ت، ص: 476. مادة سره.

السرية كان ذا منزع غرامي عشقي أكثر من أي منزع دلالي آخر. وهو ما لم نجده عند الفيروزبادي في "القاموس المحيط" مثلاً حين نجد عنده عبارة هامة وعامة في نفس الوقت وهي قوله: ((السّر ما يكتّم كالسريرة))⁽¹⁾. وإذا كان الفيروزبادي المتقدم غير معني بتراكمات المعنى ونزوعه الدلالي لتقدمه فإن المعجم الوسيط ورجال المجمع القاهري معنيين بحسبان التراكمات التي يدل عليها السّر وقد بينها بأنها غرامية من خلال ما أورده من إيراد الآية السابقة.

إن من بين المتقدمين من أدرك هذا المنزع العشقي للسّر، ولذلك يذكر الجرجاني في التعريفات السر ملمحا إلى المحل الذي يكتنز فيه السر وهو المحبة في إشارة تقابلية لطيفة فيقول: إن ((السّر: لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة، والقلب محل المعرفة، وبدون السر تعجز النفس عن العمل))⁽²⁾ فانظر إلى الرجل كيف شبه السّر في القلب كالروح في البدن وشبه مشاهدة السر بإحلال المحبة في الروح فلم يجد الشريف من مجال يمكن أن يقرب به فكرة السر أو مدلول ومعنى السر إلا بالمحبة، وهو - لعمري - تقريب لطيف من الرجل. وهو ذات المعنى الذي أخذه عبد المنعم الحفني وأودعه موسوعته للصوفية وزاد عليه قائلا: ((وقيل السر بعد القلب، وقيل بعد الروح وأعلى من القلب والروح وألطف؛ وقيل: إن ما أسموه سرا ليس كذلك، لأن السر ليس شيئا مستقلا بنفسه، ولكن حينما تصفو النفس، يعرج القلب من مقامه، أو تعرج الروح من مقامها، وهذا هو الذي يسمونه سرا، وهذا السر يظهر في كل من القلب والروح. والسّر ينفرد به الأولياء والعارفون بالله بما خصهم الله به من الأسرار الإلهية و الحقائق الربانية. ولما أفضى الحلاج السر، قال فيه الجنيد: لقد

¹ - الفيروزبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، ضبط يوسف الشيخ محمد البقاعي، د ط، بيروت لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، 1999، ص: 366 مادة (سرر).

² - الشريف الجرجاني (علي بن محمد): كتاب التعريفات، تح عادل أنور خضر، ط 01، بيروت لبنان، دار المعرفة، 2007، ص: 110 .

فضحنا الحلاج، لأنه فشا بسر كان يجب أن يكتمه ((¹) وإنما قاربنا هذه المقاربة الصوفية لما في الحب والغزل العذريين عند العرب من التصوف ومثال حالهم يقول كما استشهد به الغزالي المتصوف المنظر للتصوف نفسه وهو قول قيس بن الملوح المجنون: أمراً على الديار ديار ليلي... الخ (بيت سابق).

ولا يكفي الجرجاني بتعريف السرّ، بل يتعداه إلى تعريف مصطلح آخر وهو "سرّ السرّ" بقوله: ((سرّ السرّ: ما تفرد به الحق عن العبد، كالعلم بتفصيل الحقائق في إجمال الأحدية وجمعها واشتمالها على ما هي عليه، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو" الأنعام 59))⁽²⁾.

وللتدليل أكثر على توزع النزوع الدلالي لمصطلح السر إلى المحبة الإلهية والعشق البشري نسترشد بالزمخشري في أساس البلاغة لتجد الرجل لا يبتعد كثيراً عما قرره من سبق ذكرهم، ولا سيما يحن يقول: ((سرّ - أسرّ الحديث، واستسر الأمر: خفي، ووقفت على مستسرّه. واستسرّ القمر. وهذه ليلة السرار. وأفتى سره وسريرته وأسراره وسرائرّه. وهم طعانون في السرّ... ومن المجاز: أعطيتك سره: خالصه. وهو في سرّ النسب: محضه. وواعدها سرا: نكاحا ..))⁽³⁾ إلى آخر الكلام الذي أورده الزمخشري جار الله محمود بن عمر، وهو كلام لا يبتعد عن مدلولات اللذة والمحبة الموجبة للوطء بأعضائها وما إليه.

بقية المعاجم المتخصصة في العلوم لا تعطي هذا النزوع أهمية تذكر كما رأينا عند معجم متخصص بالاستعمالات البلاغية كأساس البلاغة للزمخشري، ففي الفلسفة وبالضبط عند الحفني نجد يقول: ((سرّ.... Mystery (E) .. Mystere(f) . Mystereum (L,G) يطلق على مرادين، أحدهما الأمر الخفي ضد العلانية، والآخر القلب، من باب إطلاق لفظ الحال على المحل، تقول ظهر سر قلبي، ووقع في سرّي،

¹ - عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ط 05، القاهرة مصر، مكتبة مدبولي، 2006، ص: 1028، 1029 مادة سرّ.

² - الشريف الجرجاني (علي بن محمد): كتاب التعريفات، ص: 110، 111.

³ - الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة، دار صادر، بيروت لبنان، د ط، 1979، ص: 292، 293 مادة (سرر) .

والسرّ قال عنه الله تعالى: ((يعلم السرّ وأخفى)) طه 7. فهو نور روحاني، وآلة النفس، بدونه تعجز عن العمل ولا تفيد فائدة، والسر بهذا المعنى هو ما يختص بكل شيء من جانب الحق عند التوجه الإيجادي.

وسرّ العلم: هو حقيقة سرّ العالم به؛ وسرّ الحال: ما يعرف من مراد الله فيها؛ وسرّ الحقيقة: ما لا يغش من حقيقة الحق في كل شيء؛ وسرّ التجليات: هو شهود كل شيء على كل شيء؛ وسرّ القدر: ما علمه الله من كل عين في الأزل؛ وسرّ الربوبية: هو ظهور الرب بصور الأعيان، فهي من حيث مظهريتها للرب القائم بذاته، الظاهر بتعييناته، قائمة به موجودة بوجوده.

السرّ الوجودي Le Mystere Ontologique (f) مقولة الفيلسوف الوجودي جابرييل مارسيل (1889 - 1973) أن الوجود يفتح على العلوّ، فالنجاة أو الخلاص من مأساوية العالم إنما برحمة من الله، كيف هذا؟ هذا هو السرّ الوجودي الذي يريد مارسيل أن يهمس به في شعورنا))⁽¹⁾

حين ينتقل الحفني من جبة الفيلسوف إلى جبة العالم بالتصوف نجده يتخير اصطلاحات المتصوفة ومفاهيمهم فيقول من خلالهم عن السرّ في التصوف: ((السرّ المجرد والهم المجرد بمعنى واحد، وهو هم العبد وسره إذا تجرد من جميع الأشغال، و تفرد بمراقبة ذي الجلال، فلا تعارضه خواطر قاطعة، ولا عوارض مانعة عن التوجه والإقبال والقرب والاتصال))⁽²⁾.

السرّ في الحبّ والعشق

الحب في حد ذاته سرّ من الأسرار لا يمكن إثباته بصورة من الصور ولا وجه من الأوجه، نعم له علامات وله أمارات وحالات وأعراض ولكن لا يمكن الإمساك به ورؤيته فلا يعرفه إلا من يقاسيه، ولذلك كان هو في حد ذاته سرا من الأسرار قبل أن يكون موجبا للسرية بين المتحابين، ولذلك يمكن القول أن ((الحب متهرب، لا يمكن التقاطه،

¹ - عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط 03، القاهرة مصر، مكتبة مدبولي، 2000، ص: 410.

² - عبد المنعم الحفني: معجم مصطلحات الصوفية، ط 02، بيروت لبنان، دار المسيرة، 1978، ص: 129.

ومع ذلك فهو موجود، ولكن كيف يمكن تمرير الرسالة وإعلان قيمة الحب؟ فهو يتجمد ويموت ما إن يقال. الحب لا يعلم ولا يبشر به. يعاش وينتقل في الصمت. الشيء الوحيد الذي يمكن أن نؤكد فيه هو أنه موجود، ممثلاً بالإيجاب، ممثلاً نعم))⁽¹⁾ ولذلك ما كان سرا لا يعيش إلا في السرية، فإذا ما كشف وفضح وتم الإفصاح عنه مات ولم يعد موجودا، فظلت حياته مرتبطة بالسرية على الدوام.

ولذلك كان تاريخ العرب يحيا هذه القاعدة الحياتية ويمارس وينفذ هذه الضوابط في التأكيد على سرية المحبة ومنافاة المحبة في حد ذاتها للكشف والإعلان وإلا ماتت، فإنه ((معلوم أن العرب كانوا لا يزوجون الرجل بمن يهواها، و كان يتحاشى السلام عليها لئلا يعرف بها.

قال أبو رياش: كان الرجل إذا عرف بحب امرأة لم بزوجه إياها. وكان إذا سلم عليها عرف أنه يهواها، وقد يسلم عليها وإن كان في السلام يأس منها وهذا من إفراط شوقه وغلبة هواه))⁽²⁾ وهو عُرف اشتهر به العرب موجب للسرية والكتمان ولا موصل إلى ذلك إلا بحفظ الأسرار بين الحبيبين.

بل من العجيب في أمر ارتباط السر بالحب والعشق ما ذكره أحمد تيمور باشا أن من ضروب المحبة المتعددة: ((محبة المتحابين لسر يجتمعان عليه ويلزمهما ستره))⁽³⁾ مما يخلق بينهما اشتراكا في حفظ السر والتفرد به ومن ثمة حدوث الألفة بينهما، إذ ليس التشاكل وحده موجب المحبة وإنما توصل إليه الألفة أيضا.

هذا وإذا كان التجلي والكشف نقيض السر والكتمان، أو بعبارة أخرى الخفاء والحب. وعلى هذا الأساس بني الحب الصوفي والعشق الإلهي، فكان الحب أو السر ركيزة له، ((فقد وصفت لنا الدراسات الحديثة ذلك الوصف المفصل تاريخ مدرسة صوفية شعرية وآثارها في القرن التاسع عند الإسلام، تلك المدرسة التي جاء على رأسها العلاج

¹ - فرنسوا فوركيه: المال القوة والحب، تأملات في تطور بعض القيم الغربية، ترجمة: سناء أبو شقرا، ط 01، بيروت لبنان، دار الفارابي، 1999، ص: 110.

² - أحمد تيمور باشا: الحب والجمال عند العرب، دط، القاهرة، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1971، ص: 106.

³ - أحمد تيمور باشا: المرجع نفسه، ص: 28.

والغزالي والسهروردي الحلبي، شعراء الحب الأسمى الجوالون، المتغنون الكورتوازيون "بالمعنى" المحجوب، والشيء المحجوب الذي هو في الوقت نفسه رمز "العشق" الإلهي ((¹) إذ لا معنى للعشق إذا اطلع عليه غير العاشق وخالقه في عرف المتصوفة، بل)) ويؤكد المتصوفة العرب على ضرورة حفظ سر الحب الإلهي، ويشهرون في كل مناسبة بالفصوليين الذين يرغبون بالوقوف على الأسرار دون أن يشاركوا فيها بجماع إيمانهم ... ونجد في معظم القصائد البروفانسانية شخصيات يسمونها لوزانجيه " Losangiers (معناها تمام، فضولي، جاسوس) يغمرهم الشاعر الجوال بالهجو. ولا يعرف علماءنا الشراح ماذا يفعلون بهؤلاء اللوزانجية المريكين ويحاولون التخلص منهم مؤكدين أن العشاق في القرن الثاني عشر كانوا يتمسكون تمسكا عظيما بسر علاقاتهم (وهذا ما يميزهم ولا شك من عشاق جميع العصور الأخرى))⁽²⁾ مع العلم أن التصوف لا يعترف بهؤلاء الذين يعبر عنهم في هذه الفقرة بـ "عشاق جميع العصور الأخرى" ممن كشفوا حبه، وإذا كانوا غير مخرجين من زمرة التصوف بكشفهم أسرار المحبة، إلا أن التصوف أخرجهم من زمرة العشاق للذات الإلهية حين كشفوا سرّ الحب والعشق كما رأينا في تاريخ التصوف مع الحلاج شهيد هذا العشق الإلهي.

وخلاصة هذا الباب دليل من التعبير الجميل على ركيزة السرّ بين المتحابين سواء أكانوا متصوفة العشق البشري أم متصوفة العشق الإلهي، ونلمس ذلك بشكل واضح في هذا الأخير (العشق الإلهي) في قول سلطان العاشقين أبي حفص عمر بن أبي الحسن ابن الفارض توفى سنة 632:

ولقد خلوتُ مع الحبيب و بيننا سرُّ أرقُّ من النَّسيمِ إذا سَرَى⁽³⁾.

أبواب لابن حزم في الطوق تحيل على باب السرّ (في قيمة العتبات)

قبل أن يتعرض ابن حزم إلى السر الذي حقق إخفائه العشاق على مدى تاريخهم عبر عصور العشق الطويلة ولو بقياس نفسي بدل "الزمني" تطرق إلى باب

¹ دينيس دي رجمون: **الحب والغرب**، ترجمة، عمر شخاشيرو، ط 02، الجمهورية العربية السورية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 2007، ص: 132.

² دينيس دي رجمون: المرجع نفسه : ص: 135.

³ ابن الفارض: **الديوان**، د ط، بيروت لبنان، دار صادر، د ت، ص : 169.

يدخل ضمن معنى الستر والسرية لمن هم خارج علاقة العشق التي تكون بين طرفين اثنين، هذا الباب هو باب الإشارة بالقول وهو وسط بين الكشف وبين الستر، ووسط أيضا بين التصريح والكتمان وهو ما أسماه بباب "التعريض بالقول" حيث يكون المقصود بالإشارة التي قد تتضمن عبارة تعريضية هو المحبوب ذاته بالإعلام أو الإيجاب، و لذلك تكون الغاية إلى المحبوب الكشف مختلطا بالخفاء خشية الصد والرفض، بينما يكون المقصود بالإخفاء والسرية في السر كل من هم حول المحبوب حيث يقول ابن حزم: ((فأول ما يستعمل طلاب الوصل وأهل المحبة في كشف ما يجدونه إلى أحبّتهم: التعريض بالقول، إما بإنشاد شعر، أو بإرسال مثل، أو تعمية بيت، أو طرح لغز، أو تسليط كلام. والناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أحبّتهم من نفار أو أنس أو فطنة أو بلاهة))⁽¹⁾ والحقيقة أن التعريض بالقول إذا علم المخاطب به وبمغزاه، وهو المحبوب طبعاً، كان له كشفاً وكان سرا بالنسبة لمن حوله حين لم يفهم مغزاه غيره ولم يبلغ مراده ومعناه سواه .

ثم ينتقل ابن حزم في الطوق إلى شكل آخر من أشكال السرية، وهو يشبه إلى حد بعيد التعريض بالقول غير أن مادة التواصل فيه غير لغوية، بل هي سيميائية من باب الإشارة، وهي الإشارة بالعين. في باب جعله لذلك ابن حزم حيث قال: ((ثم يتلو التعريض بالقول - إذا وقع القبول والموافقة - الإشارة بلحظ العين، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى، وتضرب به الوعود، وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطى))⁽²⁾ وكل هذه الأمور تحدث بفعالية ضمن قناة الإشارة ويكون خيطها التواصلية بين الحبيبين فقط لا يتعدى ربطها غيرهما، اللهم إذا وجد حاذق وذكي يعمل عقله وفكره وقوة ملاحظاته فيدرك ما بينهما، ومع ذلك فهذا الإدراك الدخيل لا ينفي عن هذه العلاقة وعن هذا التواصل صفة السرية.

¹ - ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تقديم نزار وجيه فلوح، مراجعة:

ياسين الأيوبي، د ط، صيدا بيروت لبنان، المكتبة العصرية، 2006، ص: 81 .

² - ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص: 83.

والحق أن ابن حزم قد كشف عن الغرض الأساس من طلب السرية في العلاقة الغرامية واتخاذ كل هذه الأسباب قصد نجاحها، فلا يتحقق النجاح إلى بما نبه إليه بالتنبيه على الرقيب، فإنما جعل السر خوفاً من الرقيب، ولو لم يخش من الرقيب لما جعل السر سبيلاً في التواصل بين المحبين، ولذلك تفصل ابن حزم في أداة السر الفعالة وهي العين وبالضبط في المعاني التي تُستفاد من كل حالة من حالاتها كالإشارة بمؤخر العين الواحدة التي تدل عنده على النهي عن الأمر⁽¹⁾ إلى غير ذلك من دلالة بقية حالات العين واستخدامها فيزيائياً أو حركياً، حتى قال رحمه الله: ((واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس))⁽²⁾ إلا أن رؤية العين ونظرها أقرب إلى الستر والسرية إذا طلبت.

بعد ذلك يتحدث ابن حزم في باب المراسلة ولا تكون في نظره إلا بالكتب والكتاب سر بين المرسل والمرسل إليه يخفي ويستر ما كتب فيه حتى قال ابن حزم عنه: ((ثم يتلو ذلك إذا امتزجا: المراسلة بالكتب وللكتب آفات، ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب، ولحلمها في الماء ولمحو أثرها، فربّ فضيحة كانت بسبب كتاب))⁽³⁾ والكتاب لأنه يقيد الفكرة بالكتابة فهو سلاح ذو حدين إذا لم يحرم رسمه وخطه واطلع عليه غير الحبيبين كان أوكد للكشف وأبعد عن الستر والكتمان ولم يحقق غرض السرية في العلاقة بين الحبيبين.

هذا وإذا كان التعريض بالقول محققاً للسرية في إلغازه وإشكاله على فهم غير المحبوب المعنى بالتعريض، وإذا كانت العين والإشارة بها تحقق السرية من خلال النظر الذي يكون بين المحب ومحبيه فحسب، وإذا كان الكتاب محققاً للسرية إذا لم يقع في غير يد المرسل إليه فحسب كأن يرسل مع أمي لا يقرأ أو أمين لا يطالع على ما بداخل أمانة الرسالة والكتاب أو أرسل عن طريق الحمام الزاجل، فإن ما يشبه ذلك في السرية السفير الذي يرسل إلى المحبوب. قال عنه ابن حزم: ((ويقع في الحب بعد هذا، ويعد حلول الثقة وتمازج الاستئناس، إرسال السفير، ويجب تخيره وارتباده واستجادته

¹ ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 83.

² ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 83.

³ ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 86.

واستفراجه. فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته، وستره وفضيحته، بعد الله تعالى. فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقا يكتفي بالإشارة، ويقرطس عن الغائب، ويحسن من ذات نفسه، و يضع من عقله ما أغفله باعته، ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه، كاتما للأسرار، حافظا للعهد، قنوعا ناصحا. ومن تعرى من هذه الصفات، كان ضرره على باعته بمقدار ما نقصه منها))⁽¹⁾ وشهادة الرسول ومكائده إذا لم يكن أمينا أخطر من خط الكتاب، ولذلك فهو أيضا سلاح ذو حدين في السرية والإيجابية أو تحقيق النفع للمحب من جهة وفي الكشف والفضح وتحقيق السلبية والضرر للمحب من جهة ثانية.

ليخلص ابن حزم إلى باب "طَيِّ السَّرِّ"، وهو باب يقع في خمس صفحات بحسب الطبعة التي بين أيدينا، نرجع إليه في ما بعد و نشير إلى باب جعله ابن حزم بعده للإذاعة و هي ضدَّ السَّرِّ، ليحدثنا ابن حزم عن أهمية السَّرِّ في علاقة العشق والغرام وبضدها- كما تقول العرب- تتضح الأشياء: يقول ابن حزم عن الكشف في باب الإذاعة مبينا أن السَّرِّ هو حقيقة المحبة كما آمن بها العشاق للذات الإلهية تبارك وتعالى من المتصوفة وكما آمن بها أضرابهم من عشاق البشر وكثير منهم متصوفة أيضا كالمحبين العذريين في بوادي العرب وحواضرهم أما الكشف والإذاعة فهما معنى غريب عن علاقة المحبة والعشق، ولذلك كان الأصل والطبيعة هو السرية وكان العارض هو الكشف: ((وقد تعرض في الحب الإذاعة، وهو من منكر ما يحدث من أعراضه، ولها أسباب: منها أن يريد صاحب هذا الفعل أن يتزيا بزِي المحبين، ويدخل في عدادهم، وهذه خلاصة لا ترضى، وتجليح بغيض، ودعوى في الحب زائفة))⁽²⁾ وهو تعبير صريح وواضح من ابن حزم العالم النفساني والفيلسوف المجرب للعشق وأحواله كما صرح في غير ما موضع من الطوق. وهو يورد في الطوق الكثير من الأبيات الشعريّة التي تعبّر

¹ - ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 88.

² - ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 97.

عن هواه وعشقه وعن تمثله لأغلب الحالات التي تحدث عنها وهي مصاحبة للحب والعشق والغرام.⁽¹⁾

إن ابن حزم مدرك أن الحب كشف في جلاباب ستر وجلاء وإذاعة في ثوب سر فهو يكشف صاحبه من غير إرادة منه للكشف، كما قال البوصيري رحمه الله في ما يذهب بعض الباحثين بتسميته بالنسب نبوي:

أَيْحَسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتَمٌ ... ما بين مُنْسَجَمٍ منه و مُضْطَرَمٍ (2)

يقول ابن حزم في هذه الحقيقة التي ليست هي الأصل أو القاعدة، وإنما استثناء في عرف الحب والعشق قد يخرج إليه بعض العشاق من دون قصد منهم إلى كشف السر: ((وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب، وتسور الجهر على الحياء، فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلاً. وهذا من أبعد غايات العشق، وأقوى تحكمه على العقل، حتى يمثل الحسن في تمثال القبيح، والقبيح في هيئة الحسن. وهناك يرى الخير شراً، والنشر خيراً. وكم مصون الستر، مسبل القناع، مسدول الغطاء، قد كشف الحب ستره، وأباح حريمه، وأهمل حماه؛ فصار بعد الصيانة علماً، وبعد السكون مثلاً؛ وأحب شيء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم، لاعتراه النافض عند ذكره، ولطالت استعادته منه، فسهل ما كان وعرا، وهان ما كان عزيزاً، ولان ما كان شديداً))⁽³⁾. وإنما هذه الاستفاضة من التعبير البياني الجميل من ابن حزم للتأكيد على شناعة الفضح وللتركيز على ما ذهبنا إليه من أن الكشف في الحب لم يكن على الدوام أصلاً أو قاعدة وإنما كان الأصل والقاعدة هو الستر والسرية.

وما يزال ابن حزم يطيل العبارة في القدر في من يكشف أسرار المحبة، ويبين السبب في ذلك والمآل الذي يصل إليه هذا المحب المستهتر أم المغلوب على أمره قليل الاحتمال، يقول: ((واعلم أن هذا داعية نفار المحبوب، وفساد في التدبير، وضعف في

¹ ابن حزم: الديوان، جمع وتحقيق، عبد العزيز إبراهيم، ط 01، بيروت لبنان، دار صادر، 2010، ص : 154.

² راجع محمد رجب النجار: "بردة البوصيري، قراءة أدبية و فولكلورية"، حوليات كلية الآداب، كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية السابعة (07)، 1986، ص: 16- 18.

³ ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 96.

السياسة؛ وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سنة وطريقة، متى تعادها الطالب أو خرق في سلوكها انعكس عمله عليه، وكان كده عناء، وتعبه هباء، وبحثه وباء. وكلما زاد عن وجه السيرة انحرافا، وفي تجنبها إغراقا، وفي غير الطريق إيغالاً، ازداد عن بلوغ مراده بعداً⁽¹⁾، وأي مزية أو فضل تخلف له وقد ذهب عنه، بهذا الكشف، كل ما كان يأمله ويريد بلوغه، فانقضت آماله جملة وتفصيلاً، وذهبت أحلامه سدى، وأصبح سعيه مخيباً.

ثم ينتبه ابن حزم إلى الخبث في النفوس وإلى شهوة الانتقام في القلوب الضعيفة، فيخرج منها ما هو مستقبح، مردول على حد وصفه، إذ لا مبرر للكشف في علاقة المحبة- في رأي ابن حزم - مهما كانت الأسباب، يقول ابن حزم: ((ومن أسباب الكشف وجه ثالث، وهو عند أهل العقول وجه مردول وفعل ساقط؛ وذلك أن يرى المحب من محبوبه عنراً أو مللاً أو كراهة؛ فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار، وهذا أشد العار وأقبح الشنار، وأقوى شواهد عدم العقل ووجود السخف. ربما كان الكشف من حديث ينتشر وأقاول تنفسو، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ورضي بظهور سرّه إما لإعجاب أو لاستظهار على بعض ما يؤمله؛ وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخواني من أبناء القواد. قرأت في بعض أخبار الأعراب، أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه، ويجاهر ويعلن، وينوه بذكرهن. ولا أدري ما معنى هذا، على أنه يذكر عنهن العفاف، وأي عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة في هذا المعنى؟!))⁽²⁾

إن ابن حزم في الأبواب الدالة على السرية في علاقة الحب التي قصر طوقه عليها يعطينا أمثلة وأخباراً شهدها معاينة أو أخبر بها، بل وينقل لنا أشعاراً في غاية الرقة معبرة عن الحال على باب الاستشهاد، وأحياناً لا يكتفي بنقل الأشعار لنا من محفوظاته، بل ينقل لنا أشعاراً له هو شخصياً معبرة عن الحال، قد يكون أنشأها من قبل، و قد يكون صنعها لغرض إكمال المراد من الكتاب (الطوق) وهو ما يعبر من

¹ - ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 97.

² - ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 98، 99.

وجهة النقد عن تفاوت أحيانا يكون رهيبا بين مستوى هذه الأبيات الشعرية فنيا بالنسبة لشخص ابن حزم الشاعر، وهو ما لا نجده (هذا التفاوت الفني) حين يتعلق الأمر بالأبيات التي ينسبها إلى غير نفسه، مما ينبئ عن ذوق رفيع لابن حزم فيما يحفظ من أشعار عذبة ورقيقة ورصينة.

لا يزال ابن حزم يعيش السر في نفسه وفي شخصيته العالمية قبل الرواية، لأنه في كثير ومن المواضيع يذكر الأخبار والأشعار دون أن يصرح بأسماء أصحابها إيثارا للسرية وتجنبنا للفضح وإن كان يفعل غير هذا في عدة مواضع من الكتاب.

باب السر من طوق الحمامة (بيت القصيد)

نرجع إلى الباب الرئيس في موضوعنا هذا، وهو باب مخالف لبقية الأبواب (العقبات) في مسألة السر، وهو موضوع السر في المحبة لنقول: إن ابن حزم يستقرئ وقائع، ويقرر حقائق، ويستنتج قواعد من هذه الحقائق التي يعايشها، وهي طريقة عمله التي درج عليها في هذا الكتاب ومنه باب "طَيَّ السر"، حيث يقول: ((ومن بعض صفات الحب الكتمان باللسان، وجحود المحب إن سئل، والتصنع بإظهار الصبر وأن يُرَى أنه عزهاة خلي . ويأبى السر الدفين، ونار الكلف المتأججة في الضلوع، إلا ظهورا في الحركات والعين، ودبيبا كدبيب النار في الفحم، والماء في يبيس المدر. وقد يمكن التمويه في أول الأمر على غير ذي الحس اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال.

وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتقادي، وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة. وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلدها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب وأن يعتقد الصحيح باليقين وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة. وفي ذلك أقول:

يلوم رجالاً فيك لم يعرفوا الهوى	وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون جانبت التصاون جملة	وأنت عليهم بالشرعة قانت
فقلت لهم هذا الرياء بعينه	صُراحاً وزَيِّ للمرائين ماقت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد
 إذا لم أواقع محرماً أتقى به
 وهل منعه في محكم الذكر ثابت؟!
 محبي يوم البعث والوجه باهت
 فسلت أباي في الهوى قول لأثم
 سواء لعمري جاهر أو مخافت
 وهل يلزم الإنسان إلا اختياره
 وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت (1)((²)

يفرق ابن حزم بين القصد إلى الكشف والإذاعة في المحبة من جهة وبين ظهور المحبة على المحب بالطبيعة من جهة أخرى، مما لا محيد عن ظهوره، ولذلك يجب التفريق أيضاً بين النفاق في إظهار العفة وتقبل المحبة التي ليست عيباً ولا حراماً ولا أمراً منكراً أو مستقباحاً هي، ومع ذلك فهو من أهل صيانة سرّ الحب، فلم يكف ابن حزم أن يؤكد على قيمة حفظ السرّ في العلاقة الغرامية وصونه بالنثر البليغ حتى أورد لنا هذه الأبيات في تقبل المحبة، وفي احترام ظهور علاماتها بالطبيعة، وفي رفض القصد في الكشف والإذاعة.

كم كثيرة هي الأخبار الواقعية التي يوردها ابن حزم للتدليل على موضوعات أبوابه كتابه الطوق، وهذه الأخبار قد تكون مما نمي إلي سمعه وقد تكون مما عاينه هو شخصياً، و لكن كثرتها أوجبت تركها خيفة التتويل، ولكن هذا الباب الرئيس نورد فيه هاهنا مما أورد ابن حزم، وهو قوله: ((خير: واني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكن الوجد بين جوانحه، فرام جرده إلى أن غلظ الأمر، وعرف ذلك في شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض .وكان من عرض له بشيء نجهه وقبحه .إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه في إنكاره وتكذيب من ظن به غير ذلك، فسر بهذا .ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره، وهو ينتقي غاية الانتقاء، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يتهم بعلاقته، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تنقيف، فقطع كلامه المتكلم معه .فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره .

¹ راجع ديوان ابن حزم، ص: 42، 43. المحقق أخذ الأبيات في جمعه للديوان أصلاً من طوق الحمامة.

² ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص: 91، 92.

فقيل له :ما عدا عما بدا. فقال :هو ما تظنون، عذر من عذر، وعذل من عذل .ففي ذلك أقول شعراً، منه:

ما عاش إلا لأن الموت يرحمه مما يرى من تباريح الضنى فيه⁽¹⁾ ((2)

وهو الدليل الواقعي، والواقعي الشخصي والذاتي المجرب خبرا وشهادة شعرية يوردهما ابن حزم على أن الحب لا يخفى كما أشرنا فيما سبق على ذلك ببيت الإمام البوصيري رحمه الله في البردة الشريفة.و حتى إذا حاول المحب إخفاءه فإن أعراضه تقضه وتكشفه.

ثم يواصل ابن حزم على خطى شعراء الحب العذري العرب في معالجة فكرة استحالة إخفاء الحب وإن اجتهد العاشق في ذلك، وهو ما ورثه الشعراء الأندلسيون وحتى المشاركة ومنهم البوصيري فيما أوردنا له فيدلو ابن حزم مرة أخرى بدلوه في هذا الموضوع مكررا ما ذهب إليه الشعراء المتغزلون قبله من قول معاد مكرور الفكرة متجدد الأسلوب فيقول بالشعر وبالنثر: ((وأنا أقول:

دموع الصَّبِّ تنسفك وستر الصَّبِّ ينتهكُ

كأن القلب إذ يبديو قطاة ضمها شركُ

فيا أصحابنا قولوا فإن الرأي مشتركُ

إلى كم ذا أكاتمه وما لي عنه مترك !⁽³⁾

وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان، والتصاوان لطبع المحب وغلبته، فيكون صاحبه متحيراً بين نارين محرقتين .وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع .وفي ذلك أقول:

دَرَى النَّاسُ أَنِّي فَتَى عَاشِقٍ كَثِيبٌ مَعْنَى وَلَكِنْ بَمَنْ؟

إِذَا عَآيَنُوا حَالَتِي أَيْقَنُوا وَإِنْ فَتَشُوا رَجَعُوا فِي الظَّنِّ

¹ - راجع ديوان ابن حزم، ص:157.المحقق أخذ الأبيات في جمعه للديوان أصلا من طوق الحمامة.

² - ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفه والألاف ، ص: 92.

³ - راجع ديوان ابن حزم، ص: 112.المحقق أخذ الأبيات في جمعه للديوان أصلا من طوق الحمامة .

كخط يرى رسمه ظاهراً
 كصوت حمام على أيقة
 تلذ بفحواه أسماعنا
 يقولون بلله سم الذي
 وإن طلبوا شرحه لم بين
 يرجع بالصوت في كل فن
 ومعناه مستعجم لم بين
 نفى حبه عنك طيب الوسن
 وهيهات دون الذي حاولوا
 ذهاب العقول وخوض الفتن
 فهم أبدأً في اختلاج الشكوك
 بظن كقطع وقطع كظن⁽¹⁾
 وفي كتمان السر أقول قطعة، منها:

للسر عندي مكان لو يحل به
 أميته وحياة السر ميته
 حي إذاً لا اهتدى ريب المنون له
 كما سرور المعنى في الهوى الوله⁽²⁾

وربما كان سبب الكتمان توقي المحب على نفسه من إظهار سره، لجلالة قدر

المحبوب. (3)

وهو سبب منطقي فابن حزم نفسه يدرك هذه الحقيقة، وهو في مواطن عديدة من طوق يشهد أن رهبة الحبيب أقوى وأخطر من رهبة الملوك في قصورهم وبين حجابهم وعسكرهم، وأنه ينقل إلينا أخبار العشاق كيف كانوا يرهبون من عشقوا العجب العجاب، فكيف لا يكون المحبوب ذاته سببا لكم المحبة وحفظ أسرار المحبوب خشية أن يتغير فيكون هلاك المحب في شريعة العشاق.

وقد يكون السبب في حد ذاته هو الخوف من المجتمع أو السلطة المتمثلة في أهل المحبوبة أو قاضي المدينة أو سلطانها وأميرها إذا حدث وذاع الخبر واتهم المحب بالشبهة في انتهاك محارم الله، وعلى هذا المعنى يورد لنا ابن حزم أخبارا بعضها أندلسيا وأخرى غير أندلسية وقعت ثم يعلق عليها رحمة الله عليه بما تستحق من استفادة معنى الستر والكتمان وفضل ذلك على المحب وعلى محبوبه حاشا ما ذكره فيما سبق ممن شذ

¹ - راجع ديوان ابن حزم، ص: 152. المحقق أخذ الأبيات في جمعه للديوان أصلا من طوق الحمامة.

² - راجع ديوان ابن حزم، ص: 155. المحقق أخذ الأبيات في جمعه للديوان أصلا من طوق الحمامة.

³ - ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص93.

عن هذه القاعدة من نساء بعض القبائل ممن يرضين بالكشف والفضح موصلا للرضا والقبول. وهذه الأخبار والتعليقات من ابن حزم تتلخص في قوله مُخبراً ومعلقاً: ((خير : ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعراً تغزل فيه بصبح أم المؤيد رحمه الله .فغنت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبي عامر ليبتاعها، فأمر بقتلها.

خير : وعلى مثل هذا قتل أحمد بن مغيث .واستئصال آل مغيث والتسجيل عليهم ألا يستخدم بواحد منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم إلا الشريد الضال .وكان سبب ذلك تغزله بإحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير... وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به .فإني أدري من كان محبوبه له سكناً وجليساً، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها .وهذا ضرب من السياسة، ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغابة وأبعد النهاية، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد، وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنع والتجني، فكان أخاً فصار عبداً، ونظيراً فعاد أسيراً، ولو زاد في بوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطيف، ولا نقطع القليل والكثير، ولعاد عليه بالضرر.)) (1) وهو السبب الداخلي ضمن حيز العلاقة، مما أشرنا إليه من جانب الخوف من المحبوب ورهبته، وإنما تكون الخوف من النفور والصدود وهو نقيض ما قصد إليه في الحب وما طلب وهو القرب .

يؤكد ابن حزم على فكرة الخوف من صد الحبيب إن هو فضح علاقة المحبة وكشف السر الذي يجمع بين الحبيين، ولكنه يقدم لها باحتمال كون الحياء سبباً في كشف المحبة وأسرارها، والحياء بطبيعة الحال يكون من المجتمع وهو أمر متوقع من طبائع بعض النفوس المتخلقة، فالحياء كله خير كما ورد في الخبر، ((وربما كان من أسباب الكتمان الحياء الغالب على الإنسان، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصدأ ويكون ذا نفس أبيية، فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو، أو يريهم ومن يحب هوان ذلك عليه.)) (2) وهذه في نظري مستعبده فما يضر الشاة بعد ذبحها وإن

¹ - ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 94، 95.

² - ابن حزم الأندلسي: المصدر نفسه، ص: 95.

كان السلخ، كما لا ينفع ولا يضر المحب شماتة الأعداء بعد أن تركه من يحب، فهذا هو الأمر العظيم والخطب الجلل.

إن الجميل في كل ما ذكرنا هو تلك الشهادات الحية عن العشق والحب أولاً وعن السرية التي كانت تحكم العلاقات الغرامية في الأندلس وفي البيئة العربية عموماً، وهي شهادات تتداولها الأخبار و تحكى في مجالس السمر للتمتع، و((لا تكاد تمضي خطوات مع ابن حزم في طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكريات، عن نفسه وعن أصدقائه، وآخرين مجهولين، وكلهم من العشاق، زفرائهم حارة، وأحاسيسهم صادقة، يخطون المداد بالدمع أو الريق، ويستخدمون في التراسل الحمام والعيون والرسل، ويعانون من الوشاة، ويموتون في الحب))⁽¹⁾ وهذا ما يبرر كونهم تمسكوا بالسر عقيدة ومنهجا. ((وكل فراق وهجر لا يزيد المحب إلا ولوعاً بمحبوبه، وكذلك كل عدل ولوم وكم اشتكى المحبون من العذال والرقباء والوشاة))⁽²⁾ هؤلاء الذين نالوا حصة الأسد من علة السر والكتمان.

هذا ومهما كانت أسباب الحفاظ على سرّ الحب تتوزع على الحياء من الناس، أو الخوف من الحبيب ذاته أو الخوف من السلطان أبا كان أم قبيلة أم قاضياً أم أميراً، إلا أن الواشي أم العذول أهم أسباب وأكثرها انتشاراً في علاقة المحبة، ذلك أن الواشي والعاذل يتصيد الأخبار ويتقصد الاطلاع على الحقيقة ويتعمد التدقيق والتجسس على الحبيبين لغاية النيل بالمحبوب أو النيل منه أو النيل بالمحب أو النيل منه هو بدوره أو لغاية المال أو الحظوة عند من ينقل إليه الخبر .

الخاتمة

باب السر في مدونة ابن حزم الفلسفية والنفسية وحتى الاجتماعية، وهي الأبعاد التي يمكن أن تندرج ضمنها مدونة طوق الحمامة في الألفة والألاف، باب عظيم القدر خطير، رهيب ومهيب الجانب. تماماً كما هو السر في العلاقة العاطفية و الغرامية بين

¹ - طاهر مكي:دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، ط 02، القاهرة مصر، مكتبة وهبة، 1977،ص: 225.

² - شوقي ضيف:الحب العذري عند العرب، ط01،القاهرة مصر، الدار المصرية اللبنانية، 1999، ص: 17.

المتحابين، لأمر بسيط وهو فشل علاقة المحبة في الغالب الأعم بالكشف والفضح ونجاحها بالسر والكتمان، وفي الأثر " استعينوا على قضاء حوائجكم بالسر والكتمان " أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمن أجل ذلك كان المتحابون أحرص على السرية في علاقتهم، بل والأخطر من ذلك قد ذهب الكشف بأنفس ورقاب كانت محفوظة كما رأينا في التاريخ الصوفي مع الحلاج، وكما رأينا مع ذهاب عقل المجنون، مجنون بني عامر قيس بن الملوح حين عُلم بأمر حبه لابنة عمه ليلى وأبعد عنها، وذهب العقل من ذهاب النفس، ومهما تعددت السلط في دواعي اجتلاب السر والكتمان إلا أن النتيجة واحدة مع الكشف والفضح، وهي الفشل والخسارة في الأعم الأغلب. ويبقى السلطان الأول والأخير هو المحبوب نفسه، وهو في الغالب من يطلب السرية في العلاقة.

والحق أن الطبيعة في حد ذاتها، والأخلاق تؤازرها في طلب السرية في الأمور، ولذلك فالسر مطلب عزيز في الحياة. وهذا ابن حزم يورد الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من عشق فكتم فمات فهو شهيد " وكثير من الفقهاء ممن يورد الخبر عنه أيضا عليه السلام في ستر المعصية: " كل أمتي ناج إلا المجاهرون".

هذا وغيره مما تناوله ابن حزم في باب السر من كتابه الطوق، منطلقا من شهادة النفس وشهادة الحياة وشهادة العرف والشرع والمروءة الحقة، كل ذلك في موطن الماء والخضرة والوجه الحسن، فردوس العرب المفقود، وهو التيار الذي يجرف كل من يجدف ضده ممن يرومون السرية.

لقد حدد لنا ابن حزم الإرهاصات التي تساعد على حفظ الأسرار وهي من بابه، ثم ولج بابه محددًا أسبابه وأنواعه أو أشكاله وخطورة أو أضرار المشي في مسلك مناقض له، وأورد أخبارا عنه، ذيلها بأشعار تعبر عنه من عنده، فاستقرأ الواقع وقبل ذلك استقرأ النفس البشرية في نزوعها نحو السرية في قضاء الحوائج فضلا عن توخيها في الأمور القلبية المستورة أصلا، فأفاد ونفع القارئ، بل وأقنعه بالدليل وبالتحليل وبضرب المثل وباستمالة العاطفة عن طريق الشعر بأن حفظ السر في العلاقة الغرامية من الضرورة بمكان، كما استعاد بألفاظ التقييح والتعنيف لمن طبيعتهم الفضح والكشف فيما لا يجب كشفه وفضحه. فقدم لنا ابن حزم في باب قصير مع عتبات له (أبواب تمهيدية مساعدة)

مدونة قانونية مختصرة ومركزة، وممتعة في ذات الوقت عن أهمية حفظ الأسرار في علاقة المحبة تفيد القارئ في حياته بشكل منقطع النظير.

قائمة المصادر و المراجع

- القرآن الكريم رواية ورش عن نافع.

01- أحمد تيمور باشا: **الحب والجمال عند العرب**، دط، القاهرة ،مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1971.

02- ابن حزم الأندلسي: **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، تقديم نزار وجيه فلوح، مراجعة: ياسين الأيوبي، د ط، صيدا بيروت لبنان، المكتبة العصرية، 2006.

03- ابن حزم الأندلسي: **الديوان**، جمع وتحقيق، عبد العزيز إبراهيم، ط 01، بيروت لبنان، دار صادر، 2010.

04- **حوليات كلية الآداب**، كلية الآداب جامعة الكويت الحولية السابعة، 1986.

05- دينيس دي رجمون: **الحب والغرب**، ترجمة، عمر شخاشيرو، ط 02، الجمهورية العربية السورية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 2007.

06- الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر): **أساس البلاغة**، د ط، بيروت لبنان، دار صادر، 1979.

07- الشريف الجرجاني(علي بن محمد): **كتاب التعريفات**، تح عادل أنور خضر، ط 01، بيروت لبنان، دار المعرفة، 2007.

08- شوقي ضيف: **الحب العذري عند العرب**، ط01، القاهرة مصر، الدار المصرية اللبنانية، 1999.

09- طاهر مكي: **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة**، ط 02، القاهرة مصر، مكتبة وهبة، 1977.

10- عبد المنعم الحفني، **المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة**، ط 03، القاهرة مصر، مكتبة مدبولي، 2000.

11- عبد المنعم الحفني: **معجم مصطلحات الصوفية**، ط 02، بيروت لبنان، دار المسيرة، 1978.

12- عبد المنعم الحفني: **الموسوعة الصوفية**، ط 05، القاهرة مصر، مكتبة مدبولي، 2006.

13- ابن الفارض: **الديوان**، د ط، بيروت لبنان، دار صادر، د ت.

- 14- فرنسوا فوركيه: المال القوة والحب، تأملات في تطور بعض القيم الغربية، ترجمة: سناء أبو شقرا، ط 01، بيروت لبنان، دار الفارابي، 1999.
- 15- الفيروزبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب): القاموس المحيط، ضبط يوسف الشيخ محمد البقاعي، د ط، بيروت لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، 1999.
- 16- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، إخراج أحمد حسن الزيات وآخرين، د ط، القاهرة مصر، دار الدعوة، د ت.